السسيولوجيا اي علم الاجتماع الانساني

ملخصة من كتب البلجيكي هربرت سبنسر بقلم فهيم افندي مرقاري

(تابع ما قبلهُ)

وتأثير الاغراض الوطنية عامٌّ كتأثير سائر الاغراض الدينيَّة وهو اشد في الغرب منهُ في الشرق حيث سادت الاغراض الدينية فسكان الولايات المتحدة الاميركية يقولون عن الانكليز انهم يدافعون عن بلادهم سواء كان الحق لها او عليها. وهٰذا القول شائعٌ في كل بلاد ان لم يكن بلفظهِ فبمعناهُ. ولا سبيل للتغلُّب على هذه الاغراض الاَّ اذا تدرَّب الانسان على حسبان بلادهِ واحدة من البلدان الكثيرة الَّتي تتألف منها المسكونة

والاغراض الوطنية للامَّة كالاغراض الشخصية للفرد فان اصلها واحد ونتائجها واحدة ايضاً. فاذا سمعنا واحداً يصف مواطنيهِ بالشجاعة حسبنا وصفهُ شاملاً لنا ايضاً لان اشتراكنا في الوطن يستفاد منهُ ان فينا صفات اهلهِ

والاغراض الوطنية المعتدلة لازمة لتقدُّم الامَّة لزوم الاغراض الشخصية لتقدم الفرد ولكن اذا زادت او نقصت عن حدٍّ معلوم نتج منها نوعان من الضرر. الاول من زيادتها فانها تحمل على الكبر والخيلاء وتغري الامة او الفرد بالاعتداء على الغير. والثاني من نقصانها وهو يدعو الامَّة الى الضعف والعجز عن تحصيل الحقوق فيمهِّد للغير الاعتداء عليها. وكما تؤثر الاغراض الوطنية في معاملتنا لغيرنا تؤثر ايضاً في ما نظنهُ بهم. وتأثيرها ممدوح عموماً بخلاف تأثير الاغراض الشخصية. فاذا اعترف امرؤ بضعفهِ وخطاياهُ عدَّ ذلك منهُ شهامةً واما اذا اعترف بان شعبهُ يسيء الى غيرهِ من الشعوب المجاورة لهُ عدَّ خائناً لوطنهِ

وعُجب الشعب بنفسهِ يحملهُ على الحط من مقام غيرهِ وهٰذا امر شائع حتى عند المتوحشين ايضاً. ذكر احد السيَّاح انهُ سمع بعض الزنوج في افريقية يقولون ان الانسان الابيض اشبه بالقرد المجوز وان كثيرين من الافريقيين ينكرون كون الاوربي انساناً كما ينكر الاوربيون عليهم انهم من نوع الانسان. وتواريخ الحروب مشحونة بآراء التحاربين المتضادة فكل خصم من الخصمين يعدُّ الخصم الآخر لصًّا معتدياً. وقلما انصف خصمٌ خصمهُ. واذا ثار اهالي احدى مستعمرات الدول المجاورة لنا مدحناهم وقلنا انهم ذوو شهامة يأنفون من الذل ولا يحتملون الضيم ولنا الدولة الَّتي تحاربهم ووصفناها بالظلم. واذا ثارت احدى مستعمراتنا حسبنا اهلها عصاةً واوقعنا بهم تأديباً لهم وعبرة لغيرهم

وطبيعي انهُ اذا ذاكره شعب شعباً آخر وصف حكومتهُ وديانتهُ وعوائدهُ بكل وصف قبيح وجار عليهِ في المسائل الاجتماعية . واوضح مثال لذلك اعتقاد عموم المتمدنين في القبائل المتوحشة . ومعنى لفظة المتوحشين اصلاً غير المهذبين ثم صارت تعني القساة المتوحشين لما بلغ اهالي اوربا من قساوة بعض القبائل المتوحشة . ولما كانت تلك القبائل لا تدين بدين اهالي اوربا وكانت مشهورة بالقساوة زعم الاوربيون ان عدم تدينهم بالدين المسيحي هو سبب قساوتهم . غير ان اخبار الثقاة من السياح قد اثبتت ان لاولئك المتوحشين فضائل لا توجد في المتمدنين وانهم اضافوا نوعية المراكب التي رست في بلادهم واحسنوا اليهم . وما ظهر منهم من العداء نتج عن اعتداء النوعية عليهم . وقد ارتكب الاوربيون في القرون الوسطى فظائع كثيرة في البلدان التي دخلوها حينئذٍ ولم تقنهم تعاليم الدين المسيحي الذي يأمر بمحبة جميع الناس شيئاً

وتأثير الاغراض الوطنية وما ينتج عنها من احتقار الغير والدعوى ظهر جلي في سلوك فرنسا والمانيا . فالفرنسويون استخفوا بقوة المانيا وقت الحرب الاخيرة وكانوا واثقين ان النصر لهم فصنعوا الخرائط الكثيرة لبلاد المانيا لترشدهم في السير فيها وقت احتياجهم واهملوا خرائط بلادهم . وعلماؤهم يعتقدون ان العلوم خاصة بهم ومصوروهم وشعراؤهم يحسبون انهُ ما من احد اشتهر في الفنون غيرهم . فالذي يرى صورة انكرس الشهيرة التي موضوعها تتويج هوميروس يرى المحفل غاصاً بالشعراء الفرنسويين ويرى شكسبير في زاوية منها وقد صُيِّر نصف جسمه . وعلى جدران قصر الصناعة في باريس كتبت اسماء علماء فرنسا وسائر الشعوب وأُهمل اسم ليوتن شيخ الفلاسفة مع ان كثيرين من الفرنسويين الذين ذُكروا هناك ليسوا على شيء من الشهرة العلمية . ومن يتصفح اقوال شعراء فرنسا وكتبتها يجدهم كلهم يقولون قولاً واحداً وهو أن فرنسا سيدة الممالك ومنها انبعثت انوار العلم والعرفان

وقد شعر الالمان بقوتهم العظيمة بعد حرب سنة ١٨٧٠ فسابقوا الفرنسويين في مضمار الدعوى وسبقوهم . فقد كتب احد اساتذتهم الى المؤلف يقول لهُ " لا حديث لمواطني اليوم الاَّ الوحدة الالمانية والامبراطورية الالمانية وجيوش المانيا واساطيل المانيا وعلومها وفنونها وهم يحتقرون الفرنسويين وعلومهم " . وقد اعترض علماؤهم على انشاء مؤتمر عام لتوحيد العلوم الفلسفية بدعوى انهُ يغير مبادئ الفلسفة الالمانية . واشار بعضهم بان يليس جميع الالمان من طرز واحد تمييزاً لهم على غيرهم من امم الارض

وهناك نوع آخر من هذه الاغراض وهو الاغراض التي ضد الوطن ودعاتها يدعون على

اوطانهم و يطلبون الى مواطنيهم التشبُّه بالشعوب المجاورة وهٰذا ايضاً يدعو من قام به الى الانحراف والزيغ في ذكر المسائل الاجتماعيَّة . ولكل شعب حسناتٌ وسيئاتٌ وعلى الراوي المنصف ان يذكرها كلها بلا زيادة ولا نقصان

اوجزنا الكلام في ما تقدَّم على الصعوبات الَّتي تحول بيننا وبين درس علم الاجتماع الانساني ولننظر الآن كيف يعدُّ الانسان نفسهُ لدرس هٰذا العلم . ومعلوم ان عقل الانسان اشبه بجسمهِ فاذا روضتَ يدك واعملتَ رجلك قويت الاولى وضعفت الثانية وهكذا اذا مرَّنت احدى قوى عقلك واعملت سائر القوى . ولما كانت المسائل الاجتماعية كثيرة التعقيد وكان درسها يقتضي النظر الى الامور من جميع وجوهها كان لا غنى لنا عن تمرين قوانا العقليَّة كلها وذلك يقوم بدرس العلوم كلها لان لكل منها تأثيرًا خاصًّا في العقل

والقسم الاول من العلوم اللازمة لتنقيف العقل هو العلوم المجردة اي الرياضيات والمنطق وبواسطتها تقترن الانسان على رؤية العلاقة بين العلل ومعلولاتها . فاذا درسنا قضية هندسيَّة مثلاً رأينا لها مقدمة ونتيجة و بينهما علاقة واضحة و بتمرُّن العقل على رؤية مثل هذه العلاقات في المسائل الرياضية يصير قادرًا على رؤيتها في المسائل الاجتماعية ايضاً

والقسم الثاني هو العلوم المجردة الممتزجة كالطبيعيات والكيمياء وفائدتها ايضاح ما يدرك من الاسباب والنتائج بطريقة لا تقبل الشك — و بديهي ان العامي كثيرًا ما يتوصل الى معرفة ذلك بنفسهِ من غير ان يدرس العلوم الطبيعية ولكن قياسهُ يبقى ناقصاً اذ يجهل النسبة بين السبب والنتيجة سواء كان في الكم او في الكيف . ولذلك يخطئ كثيرون اذ ينسبون نتائج كبيرة الى علل صغيرة مع ان كمية النتيجة تكون معادلة للقوة الَّتي احدثتها او يعتقدون ان العلة قد تنتج نتيجة من غير نوعها كمن يزعم ان وجود الماعز في الاسطبل يحفظ صحة الخيل مع انهُ لا علاقة بين تلك العلة وهذه النتيجة

والقسم الثالث من العلوم المهذبة للعقل هو العلوم الممتزجة كالفلك والجيولوجيا وفائدتها انها تثبت بالبرهان وجود الاستمرار في الكون والارتباط بين اجزائهِ . مثال ذلك اذا جذب احد السيارات او عدةٌ منها سيَّارًا آخر سار في فلك آخر غير فلكهِ الاول وظلَّ سائرًا فيهِ الى الابد واثَّر في السيار او السيارات الَّتي جذبتهُ تأثيرًا لا يزول . وكل تغيُّر حدث على وجه البسيطة صار فاعلاً في احداث تغييرات اخرى بمساعدة بقيَّة العوامل . فاذا ارتفع قعر البحر في مكان ما تغيرت جهة تيارات الاوقيانوس . وتغيُّر جهتها يؤثر في هواء البلاد الَّتي حولها من قبيل بردها وحرها ونوع الرياح الَّتي تهب فيها وتغيُّر هواء البلاد يؤثر في حيواناتها

ونباتاتها . وكل تغير من هذه التغيرات يكون سبباً لتغيرات اخرى وهكذا الى ما لا نهاية له

وما يحدث في الجماد يحدث في الاحياء ايضاً فناموس الوراثة دليل قاطع على الاستمرار وذلك ظاهر في بعض اجيال الناس وبعض انواع الحيوانات الأليفة فان فيها صفات وغرائز ينتمي تاريخها الى الوف من السنين . وعدا ذلك فان الحي لما كان قابلاً كان تأثيره في ازدياد بحسب درجة نموه فاذا وقع جسم صغير على جسم كبير تأثر الجسم الكبير بنسبة ثقل الجسم الصغير الذي وقع عليه بخلاف المواد الآلية فاننا اذا ادخلنا ميكروباً صغيراً في جسم حيوان كبير غا فيه وتكاثر وكان تأثيره اعظم من جسمه الاول بما لا يقاس . وهكذا النطفة التي لا تُرى الاَّ بالميكروسكوب قد تكون حاوية جراثيم امراض تظهر في كهولة الرجل الذي يولد منها او في شيخوخته

ولا يفهم الانسان علم الاجتماع الانساني جيداً الاَّ اذا درس اولاً نواميس الحياة او علم البيولوجيا لان الشعب حيٌّ نام شأنهُ شأن كل الاحياء والمشابهة بينها من جهة التراكم والبناء ظاهرة . فاجزاء الجسم الحي قبل ارتقائه تكون كلها متشابهة وكلٌّ منها يغتذي ويتمو مستقلاً عن سائر الاجزاء . ثم اذا ارتقت ظهر الاختلاف بينها وصار لكلٍّ منها نوام خاصٌّ به ووظيفة يقوم بها . وافراد المجتمع الانساني كانوا قبلاً منفصلين يعمل كل الاعمال التي يعملها الآخر حتى ارتقوا فاختلفت اعمالهم وصار كلٌّ يعمل عملاً خاصاً ويعتمد في سائر الاعمال على غيره . فلا حياة للزارع بدون التاجر ولا حياة للتاجر بدون الصانع وعلمٌ جرًّا كما انهُ لا حياة للجهاز الهضمي بدون الدورة الدموية ولا يمكن للدورة ان تقوم بوظيفتها بدون الجهاز التنفسي وعلمٌ جرًّا

ولما كان الانسان كسائر المخلوقات دائم التغير وكان تغيرهُ تابعاً للاحوال التي تحيط به كان لا بدَّ من درس نظام التغيرات في الاحياء حتى يسهل علينا فهمها في الانسان . ولا يخفى ان كلَّ تغير يطرأ على طبائع البشر ينمو ويزداد رويداً رويداً ويتناقلهُ الخلف عن السلف حسب ناموس الوراثة فالانكليز والمنود من اصل واحد يعرف بالفرع الآري . فافترق اجدادهم منذ آلافٍ من السنين وطرأت عليهم تغيرات عديدة نمت وزادت على تعاقب الزمان حتى اصبح الشعبان اليوم مختلفين تمام الاختلاف

ووجه الشبه الثالث بين المخلوقات الحيَّة والانسان هو ان كلاًّ منهما يحيا ويموت بحسب موافقته لاحوال الزمان والمكان . والتمدن هو الفاعل الاكبر في التوفيق بين طبائع الانسان واحوال الزمان والمكان لانهُ لا قيام للجسم الانساني ما لم يعمل كلُّ فرد من افراده اعمالاً ربحها بقدر نفقاته لكي لا يضطر الى سلب غيره وان يتم اعمالهُ ويتمتع بلاذ الحياة على اسلوب

لا يمنع غيرهُ عن اتمام اعمالهِ والتمتع بما جناهُ . والتمدُّن دائم التغيير وكذلك طبائع الناس وما القوانين والشرائع سوى وسائل لمنع الناس من الاعتداء بعضهم على بعض او بعبارة أُخرى لجعل طبائعهم موافقة لما تقتضيهِ مطالب التمدُّن

ولا بدَّ من درس الفلسفة العقليَّة في مباحث علم السيولوجيا اذ يستحيل علينا ادراك اعمال الانسان ما لم ندرك اولاً الانفعالات العقليَّة ٱلَّتي حملتهُ على عملها . الاَّ ان اكثر السياسيين والمشرعين يجهلون حقائق علم العقل الاساسيَّة ولذلك تراهم اليوم ينقضون اكثر ما سنُّوهُ بالامس من اللوائح وما يبقى منها تراهُ ناقصاً لا يفي بالمرام . ومن الحقائق ٱلَّتي يجهلونها او يتغاضون عنها ان بين الشعور والعمل علاقة وانهُ لا علاقة بين المعرفة والعمل . فاذا دلس الانسان على جمرٍ وهو لا يدري بوجودها فتز واثبًا لشعورهِ بالألم مع انك لو شهدتهُ يوضع النار على رجلهِ لم يبدِ حراكاً ولو علم انك صادقٌ ما لم تر النار فعلاً واذا ابتعد حينئذٍ عنها فيكون لشعورهِ بالم وهمي . والكثير يعرف ان المسكر يردي بصحتهِ ومالهِ ومع ذلك لا يرتدع عنهُ ما لم تولد فيهِ هذه المعرفة شعورًا شديدًا بالآلام التي تنتج عن المسكر

ومن الغريب ان جمهور الناس لا يزالون يعتقدون بوجود العلاقة بين المعرفة والعمل رغماً عن اختبارنا الشخصي الذي ينفي وجودها . ولعل ذلك سبب قولهم ان المدارس فتحرب السجون كأن انتشار المعارف يمنع الناس عن ارتكاب الجرائم ويستشهدون على صحة هذا القول بان اكثر المسجونين اميون ولو دققوا في امجاثهم لوجدوا ان اكثرهم ايضاً قذرون لا يستحمون كل يوم فهل نستنتج من ذلك ان عدم الاستحمام يدعو الى ارتكاب الجرائم . والحقيقة ان الجهل ليس السبب الوحيد لارتكاب الجرائم بل هو سبب من اسباب عديدة تعمل كلها معاً في انتاج هذه النتيجة . وكلما امعن الانسان نظرهُ في هذا الاعتقاد اي ربط المعرفة بالعمل زاد عجبهُ من شدة ثقة الناس بهِ مع ظهور سخافتهِ اشد الظهور . أليس اكثر الثوريين والفوضويين والمزورين والمقامرين والذين ينشئون الشركات الكاذبة بقصد اختلاس اموال الناس قد تعلموا في المدارس العالية ومع ذلك لم يثمر فيهم العلم ثمرًا صالحًا بل استعملوهُ لضرر الغير فكان شرهم اعظم كثيرًا من شر الاميين

والذين يجهلون حقائق علم العقل ينتظرون النتائج الحسنة من وسائل لا يمكن ان تأتي بها ويتعامون عن النتائج السيئة ٱلَّتي قد تنتجها . مثال ذلك ان الغيرة حملت شعبي الطير في انكلترا منذ زمان طويل على جمع الاموال لمساعدة الفقراء والكسالى فكانت النتيجة ان الكسل صار تجارة يتخذها الناس لاكتساب العدمات وزهد كثيرون في الاجتهاد لما رأوا ان المجتهد لا

يقنع بثمار اعماله بل يدفع جانباً كبيراً منها لمساعدة جيرانه الكسالى . وعدل كثيرون من المجتهدين عن الزواج لانهم لم يتمكنوا من جمع المال اللازم لهُ وتزوج كثيرون من الكسالى لعلمهم الاكيد ان الحكومة لا تتركهم واولادهم يموتون جوعاً

ثم مرّت الايام والسنون ونسل المجتهدين في تناقص ونسل الكسالى في ازدياد حتى اصبح اكثر الطبقة الدنيا في انكلترا يضرب بهم المثل في التبذير وقلة الاهتمام بالمستقبل وتأسف اصحاب المبرات فيها الآن يتدبرون حال مواطنيهم و يتأسفون عليهم

ومن المسائل الضرورية لفهم الاجتماع البشري الاختلاف العقلي العظيم بين الرجل والمرأة فان للمرأة شأناً لا ينكر في المسائل الاجتماعية بما لها من علو المنزلة عند الامم الغربية اليوم وبواسطة التربية التي ترضعها اولادها مع اللبن وسلطتها على زوجها والدين حولها. وتختلف المرأة عن الرجل بتوقف ارتقائها باكرًا وبذلك تحفظ فيها القوى الحيوية اللازمة لولادة البنين . ويترتب ارتقاء الجسم يرتقاء العقل وذلك نرى ان النساء يعجزن عن التعليل المجرد والعدالة المجردة وهما اسمى ما وصل اليهِ عقل الرجل . ثم ان بين النوعين اختلافاً يمتدُّ تاريخهُ إلى ايام الحمجيَّة فان سوء معاملة الرجل للمرأة في تلك الايام قد اورثها صفات عقليَّة لا تزال آثارها الى الآن . ومعلوم انهُ لم يبقَ حيًّا في اعصر التنازع والحروب الاَّ الاقوياء الشديدو البأس الذين يحتملون المخاوف في سبيل ادراك غايتهم ولذا اضطرَّت نساؤهم الى بذل كل شيء لمرضاتهم لانهُ لم يكن للمرأة شفيع عند زوجها سوى حبهِ لها ولم يبقَ الاَّ نسل النساء اللواتي كان لهنَّ نصيب وافر من قوة ارضاء ازواجهنَّ فظهرت تلك القوة في بناتهنَّ ايضاً وهكذا على مرّ السنين . وقوة الارضاء تقوم باخفاء ما في النفس والتذلل للرجل وفهم قصده وحالاً فاذا باشرت المرأة عملاً ما وبان على زوجها علامات الغضب تركتهُ واذا بانت علامات السرور اتته بخفة ونشاط . وكل هذه الصفات من خواص النساء اليوم كما نعلم بالاختبار فان في المرأة ذكاءً غريزيةً تحكم بموجبها على الامور وحكمها صحيح في الغالب ولو لم تكن الاسباب التي بنيَ عليها ظاهرة

وصبية المرأة للقوة في الرجال من الطباع الراسخة فيها ولولاها لضعف النسل . فالمتوحشون يأخذون نساءهم نهباً ولذلك لا يفوز بينهم الاَّ القوي المقدام الذي يصطاد زوجتهُ كما يصطاد الطريدة ويفرُّ بها الى بلده والضعيف يموت وجداً وكمداً . ثم بطلت عادة النهب وخلفتها المبايعة مع اعطاء المرأة شيئاً من الحرية في انتخاب زوجها ونتج عن ذلك ان المرأة صارت تختار القوي الذي يقدر على اعالتها واعالة اولادها اما اولاد الضعيف وامرأتهُ فيموتون جوعاً

ورسخت محبة القوة في النساء ولذا نراهنَّ اسهل انقياداً في المسائل السياسيَّة والدينيَّة من الرجال

ولما كان الانسان قد ارتقى من دور الوحشيَّة ولا يزال آخذاً في الارتقاء كان لا بدَّ من ارتقاء المرأة ايضاً وارتقاؤها يضعف هذه الاختلافات بينها لزوال الاسباب التي اوجبتها

هذه خلاصة ما يقال عن ماهيَّة علم السيولوجيا والصعوبات التي تحول دونهِ وانواع العلوم التي يلزم درسها قبل الخوض فيهِ واستجلاء حقائقهِ . ومنبسط الكلام في الاجزاء التالية على اصول هذا العلم

المذاهب الفلسفيَّة

لحضرة الكاتب الفاضل سمويل افندي بني

بديهيٌّ ان الانسان ميَّال الى البحث عمَّا حولهُ من شؤون الكون مشغوف باستقراء الاسباب والعلل سواء اهتدى في بحثهِ إلى الحقيقة او ضلَّ سواء السبيل

والسبب في استفراغ جهدهِ وراء اجلاء الغوامض ما يجدهُ في نفسهِ من الكربة والامتعاض لوقوفهِ تجاه المسائل جاهلاً وما يشعر بهِ من اللذة والارتياح لدى استطلاع كنهها. على ان ذلك الامتعاض من الجهل وتلك اللذة من المعرفة قد انتجا لهُ العلم ثم الفلسفة

والفلسفة لفظة يونانيَّة يقصد بها في اصل الوضع حب الحكمة او العلم ثم توسعوا في تحديدها واكثروا من تعريفها على ان اختلافهم في التحديد وتباينهم في التعريف لم يحولها عن غايتها المثلى ومقصدها الوحيد وهو معرفة الاشياء باسبابها

وظلَّت الفلسفة عهداً طويلاً عبارة عن المعارف الانسانيَّة جملةً ممزوجة بعضها ببعض ولم يتطرق التقسيم اليها الاَّ منذ ظهور المدارس بمذاهبها الفلسفيَّة . اعتبر ذلك بمذهب المدرسة الايونية فانهُ افرز الطبيعيات عن سائر العلوم وهكذا عملت مدرسة الفيثاغوريين بالرياضيات والفلك ومدرسة الاليائيك بالعلوم العقليَّة

وان كانت المذاهب الفلسفيَّة لهذا العهد كثيرة فانها ترجع بجملتها إلى اصلين وهما الحس والعقل فالتي تعتمد الحس في ابحاثها هي المادية والحسية والابيقورية او النفعية والاختبارية والوضعية واللاأدرية . والتي تعتمد العقل في ابحاثها هي العقليَّة والعنادية والروحية والاعتقادية وغيرها